١

لم يحدث هذا منذ حرب ١٨١٢

من مقابلة مع جريدة المانيفيستو (إيطاليا) ١٩ سبتمبر ٢٠٠١

سؤال: لم يتسبب سقوط سور برلين فى وقوع أى ضحايا، غير أنه أحدث تغييراً عميقًا فى المسرح السياسى. فهل تعتقد أن هجمات ١١ / ٩ قد يكون لها أثر مشابه؟

تشومسكى: كان سقوط سور برلين حدث له أهمية كبرى كما أنه غير المسرح السياسى، ولكن ليس بالطرق المعتادة المفترضة، حسب رأيى. لقد حاولت أن أشرح أسبابى فى ذلك فى مكان آخر، ولن أخوض فيها الآن. فالفظائع الرهيبة التى حدثت فى الحادى عشر من سبتمبر تعد شيئًا جديداً فى الشئون الدولية، ولا يرجع ذلك إلى نطاقها أو إلى طابعها، وإنما إلى ما كانت تهدف إليه. فبالنسبة للولايات المتحدة، هذه هى المرة الأولى منذ حرب ١٨١٢ التى يتعرض فيها الأمن القومى للهجوم، أو حتى للتهديد. هناك الكثير من المعلقين الذين لفتوا الأنظار إلى تشابه مع بيرل هاربر، غير أن هذا شىء مضلل؛ ففى السابع من ديسمبر عام ١٩٤١، تم الهجوم على القواعد العسكرية فى اثنين من مستعمرات الولايات المتحدة - وليس أرض الوطن، التى لم تكن أبداً عرضة للتهديد. كانت الولايات المتحدة تفضل أن تطلق على هاواى "أرضا وطنية" لكنها كانت فى حقيقة الأمر مستعمرة. أثناء العديد من القرون الماضية، أفنت الولايات المتحدة من سكان البلاد الأصليين الملايين من الناس، وفتحت نصف المكسيك، أرض الشعوب الأصلية [لأمريكا]، ولكن هذا موضوع آخر، وتدخلت تدخلاً عنيفًا فى الأقاليم المحيطة،

وفتحت هاواى والفليبين، فقتلت مئات الآلاف من الفليبينيين. وفى نصف القرن الماضى، على وجه الخصوص، مدت نشاطها فى استخدام القوة إلى أنحاء كثيرة من العالم، وكان عدد الضحايا ضخمًا. وللمرة الأولى اتجهت فوهات المدافع فى اتجاه آخر، ويعد هذا تغيرًا مثيرًا. ويصدق القول نفسه عند الحديث عن أوروبا، بل هو أشد إثارة؛ إذ أن أوروبا عانت دمارًا فتاكًا، لكن ذلك كان ناتجًا عن حروب داخلية، أثناء ذلك، فتحت القوى الأوروبية الكثير من أنحاء العالم بقسوة بالغة، فالبلاد الأوروبية لم تتعرض لهجمات من جانب ضحاياها من الأجانب، ذلك باستثناءات شديدة الندرة. فلم تهاجم الهند إنجلترا، ولم تهاجم الكونجو بلچيكا، ولا إيطاليا إثيوبيا، كما لم تهاجم الجزائر فرنسا، وأيضًا لم تعتبر فرنسا الجزائر "مستعمرة" فلا غرو إذن، فى أن تصاب أوروبا بالذهول التام بسبب الجرائم الإرهابية التى حدثت فى الحادى عشر من سبتمبر، ومرة أخرى لا يرجع هذا إلى نطاق هذه الأحداث فللأسف، لم يستطع أحد أن يخمن ما تنذر به، غير أن الأمر الواضح الجلى هو أنها جديدة فى بابها.

سؤال: انطباعى هو أن هذه الهجمات لن تقدم لنا سيناريو سياسيًا جديدًا، أى تصورًا جديدًا للحركة السياسية، بل إنها تؤكد على وجود مشكلة داخل "الإمبراطورية." والمشكلة تتعلق بالسلطة السياسية والقوة. فماذا تعتقد؟

تشومسكى: من المحتمل أن يكون مرتكبو هذه الجريمة فئة فى حد ذاتها، إلا أن الشىء الذى لا جدال فيه أنهم يستمدون الدعم من مخزون المرارة والغضب من سياسات الولايات المتحدة فى المنطقة، امتدادًا من الغضب فى الماضى على السادة الأوروبيين. وما من شك فى وجود قضية تتعلق "بالسلطة السياسية والقوة".

فى أعقاب تلك الهجمات، أجرت صحيفة الوول ستريت چورنال مسحًا لآراء "المسلمين الأثرياء، أى أصحاب رءوس الأموال" فى المنطقة، مثل أصحاب المصارف والمهنيين ورجال الأعمال الذين تربطهم علاقات بالولايات المتحدة. وقد عبروا عن غضبهم وحنقهم من الولايات المتحدة؛ بسبب دعمها للحكومات التسلطية القاسية، وبسبب الحواجز التى تضعها واشنطون فى وجه التنمية المستقلة والديموقراطية السياسية عن طريق سياساتها فى "دعم النظم القمعية" ومع ذلك،

كان همهم الرئيسى مختلفًا: سياسات واشنطون تجاه العراق، وتجاه احتلال إسرائيل العسكرى. وبين السواد الأعظم من الفقراء، الذين يعانون من ظروف المعيشة، تكون المشاعر المشابهة أشد مرارة، فهم لا يسرهم أن تتدفق ثروات المنطقة إلى الغرب، وإلى نخب صغيرة ذات توجه غربى، وحكام فاسدين قساة، تساندهم القوى الغربية. إذن هناك بالتأكيد مشكلات السلطة والقوة. وكان رد فعل الولايات المتحدة المباشر هو التعامل مع هذه المشكلات عن طريق جعلها أشد حدة، وليس هذا، بالطبع، أمرًا حتميًا. ويتوقف قدر كبير على ما يترتب على هذه الاعتبارات.

سؤال: هل تواجه أمريكا متاعب فى التحكم فى عملية العولمة؟ ولا أقصد فقط فى حدود الأمن الوطنى أو نظم المخابرات؟

تشومسكى: لا تتحكم الولايات المتحدة فى مشروع العولمة الكبير، رغم أنها، بالطبع، تلعب دورًا رئيسيًا وأساسيًا. وهذه البرامج تثير معارضة شديدة فى الجنوب، بشكل رئيسى، حيث يمكن دائمًا قمع احتجاجات الجماهير، أو تجاهلها. وفى السنوات القليلة الماضية، وصلت الاحتجاجات إلى البلاد الغنية أيضًا، ومن هنا صارت بؤرة كبيرة للاهتمام بالنسبة للأقوياء. فهم يشعرون أنهم الآن، فى موقف الدفاع، ولهم كل الحق فى ذلك الشعور. وهناك أسباب قوية واضحة للمعارضة التى شملت جميع أرجاء العالم لصيغة حق المستثمر، تلك الصيغة الخاصة "العولمة" التى يتم فرضها، ولكن ليس هذا مجال الخوض فى هذا الموضوع.

سؤال: "القنابل الذكية" فى العراق، "التدخل الإنسانى" فى كوسوفو. لم تستخدم الولايات المتحدة كلمة "حرب" لوصف ذلك. والآن يتحدثون عن حرب ضد عدو لا اسم له، فلماذا؟

تشومسكى: فى البداية استخدمت الولايات المتحدة كلمة "حرب صليبية" ولكن أشير بسرعة بأنهم إذا كانوا يرغبون فى كسب تأييد حلفائهم فى العالم الإسلامى، فإن هذا الاستخدام سوف يكون خطأ كبيرًا لأسباب ليست فى حاجة إلى الشرح؛ لذا تحول الخطاب إلى "الحرب". لقد سميت حرب الخليج فى عام

١٩٩١ بـ"الحرب" وسمى قصف القنابل على الصرب بأنه "تدخل إنسانى،" وليس هذا بأى حال استخدامًا جديدًا؛ إذْ أن هذا كان وصفًا معتادًا للمغامرات الأوروبية الإمبريالية فى القرن التاسع عشر.

ولكن حتى حجة "التدخل الإنسانى" لا يمكن استخدامها بالطريقة العادية فى الحالة الراهنة؛ لذا لم يتبق أمامنا سوى كلمة "حرب".

وقد يكون الاصطلاح المناسب هو "الجريمة" - ربما "الجريمة ضد الإنسانية" كما أكد على ذلك روبرت فيسك. ولكن هناك قوانين يتم اتباعها لمعاقبة الجرائم هى تحديد الجناة، وتحميلهم المسئولية، النهج الموصى به على نطاق واسع فى الشرق الأوسط بواسطة الڤاتيكان، والكثير من الآخرين. لكن هذا يتطلب أدلة ملموسة، وهذه تفتح الأبواب أمام الكثير من الأسئلة مثل من هم مرتكبو جريمة الإرهاب الدولى التى أدانتها المحكمة الدولية منذ ١٥ سنة"؟ هذا إذا ما اكتفينا بذكر أوضح هذه الأسئلة.

لمثل هذه الأسباب، يستحسن استخدام لفظ غامض، مثل "الحرب". أما تسميتها بـ "الحرب ضد الإرهاب" فما هو ببساطة إلا محض دعاية ما لم تستهدف الحرب الإرهاب بالفعل. ولكن من الواضح أن هذا لا يجول بالخاطر؛ لأن القوى الغربية لا يمكنها قط الالتزام بتعريفاتها الرسمية لهذا اللفظ، كما يرد فى قانون الولايات المتحدة أو كتيبات الجيش؛ إذ أنها إذا فعلت ذلك، فسوف يكشف هذا على الفور، عن أن الولايات المتحدة دولة تتزعم الإرهاب(*)، شأنها شأن عملائها.

(*) تعريف الإرهاب حسب الوثائق الأمريكية والتى يبنى عليها تشومسكى رأيه فى أن الولايات المتحدة دولة إرهابية "العمل الإرهابى يعنى أى نشاط: (أ) ينطوى على فعل عنيف أو فعل يشكل خطرًا على الحياة الانسانية، أى أنه انتهاك للقوانين الجنائية فى الولايات المتحدة أو أى ولاية. أو ذلك الذى يمكن أن يكون جنائيًا إذا ارتكب داخل الاختصاص القضائى للولايات المتحدة أو أى ولاية. (ب) يبدو المقصود منه: ١- تخويف أو إجبار السكان المدنيين. ٢- التأثير على سياسة حكومة بالترهيب أو الإجبار. ٣- التأثير فى مسلك حكومة عن طريق الاغتيال أو الاختطاف. -[قانون الولايات المتحدة (أخبار الكونجرس والإدارة)، الكونجرس الثامن والتسعون، دور الانعقاد الثانى، ١٩٨٤-١٩ أكتوبر، مجلد ٢ فقرة ٣٠٧٧-، ٩٨ STAT، ٢٧٠٧-نشر شركة ويست، ١٩٨٤].

وربما يجوز أن أقتبس شيئا مما قاله عالم السياسة مايكل ستول "يجب أن نعترف أنه تقليدى - ويجب التأكيد على كلمة تقليدىّ - بأن الاستخدام الشديد للقوة والتهديد باستخدام القوة، عادة ما يوصف بأنه ديپلوماسية قهرية جبرية، وليس باعتباره شكلاً من أشكال الإرهاب." مع أنه، عمومًا، ينطوى على "التهديد بالقوة وغالبا استخدام العنف لما يمكن وصفه أغراضًا إرهابية، ما لم تكن قوى عظمى هى التى تتبع التكتيكات نفسها"، طبقًا للمعنى الحرفى للمصطلح. تحت الظروف [التى، بالاعتراف، لا يمكن تخيلها]، والتى تكون فيها الثقافة الفكرية الغربية، راغبة فى تبنى هذا المعنى الحرفى، سوف تتخذ الحرب ضد الإرهاب شكلاً مختلفًا تمامًا، على أساس خطوط عبر عنها بالتوسع والتفصيل فى كتابات لا تدخل فى قائمة المصادر التى يوثق بها! . إن الاقتباس الذى أورده يشار إليه فى مجلد شامل يسمى إرهاب الدولة الغربية، تحرير أليكس چورچ، ونشره أحد كبار الناشرين منذ عشر سنوات، ولكنه لا يذكر فى الولايات المتحدة. ثم إن هناك توضيحًا للنقطة التى يذكرها ستول بالتفصيل من خلال الكتاب. وهناك الكثير من الأمثلة، وهى موثقة توثيقًا كبيراً من أكثر المصادر التى يمكن التعويل عليها - مثلاً هناك وثائق رسمية حكومية - ولكنها لا تذكر فى الولايات المتحدة، رغم أن هذا المحظور (التابو) ليس شديد الصرامة فى البلاد الأخرى الناطقة بالإنجليزية، أو غيرها.

سؤال: يلوذ الناتو (حلف شمال الأطلنطى) بالصمت إلى أن يكتشف أعضاؤه هل الهجوم كان داخليًا أم خارجيًا، فكيف تفسر ذلك؟

تشومسكى: لا أظن أن هذا هو السبب من وراء تردد الناتو. لا يوجد شك ذو شأن فى أن الهجوم كان "داخليّا"، وأظن أن الأسباب التى حملت الناتو على التردد هى الأسباب التى يعبر عنها الزعماء الأوروپيون علنًا؛ فهم يعرفون كما يعرف أى شخص لديه معرفة وثيقة بالمنطقة [يقصد الشرق الأوسط] أن أى هجوم كبير على شعب مسلم سوف يكون استجابة لصلوات ابن لادن ورفاقه، وسوف يقود الولايات المتحدة وحلفاءها إلى "مصيدة شيطانية" كما عبر عن ذلك وزير الخارجية الفرنسية.

سؤال: هل فى مقدورك أن تقول شيئًا عن التواطؤ ودور العمل السرى الأمريكى؟

تشومسكى: لست أفهم السؤال تمامًا. من المؤكد أن هذا الهجوم كان صدمة عنيفة، كما كان مفاجأة لمؤسسات المخابرات فى الغرب، بما فى ذلك مؤسسات الولايات المتحدة. لقد كان لوكالة المخابرات المركزية دور بالفعل، فى الواقع كان لها دور رئيسى، لكن هذا كان فى الثمانينيات من القرن العشرين، حين اشتركت مع المخابرات الپاكستانية وغيرها (السعودية، والبريطانية، إلخ) فى تعبئة من استطاعت العثور عليهم من أشد الأصوليين الإسلاميين تطرفًا، وتدريبهم وتسليحهم؛ كى يقاتلوا "حربًا مقدسة" ضد الغزاة الروس لأفغانستان. وخير مصدر عن هذا الموضوع هو كتاب «حروب غير مقدسة» من تأليف مراسل قضى وقتًا طويلاً فى الشرق الأوسط، هو چون كولى. ومن البديهى أن هناك الآن جهدًا دؤوبًا لتنظيف السجلات، وادعاء أن الولايات المتحدة كانت مشاهدًا بريئًا، وما يدهشنى قليلاً أن صحف محترمة - ناهيك عن غيرها - تقتبس بكياسة عن موظفى وكالة المخابرات المركزية "لإظهار" هذا الاستنتاج المطلوب - وفى هذا خرق فاضح لأبسط أوليات المعايير الصحفية. وبعد انتهاء الحرب، وجه "الأفغان" والكثير منهم ليسوا أفغانًا، مثل ابن لادن، انتباههم إلى أماكن أخرى؛ مثلا إلى الشيشان والبوسنة. وربما تلقوا، على الأقل، تأييدًا ضمنيا من الولايات المتحدة. ولا غرو فى أنهم لاقوا الترحيب من الحكومات. ففى البوسنة، منح الكثيرون من المتطوعين الإسلاميين المواطنة عرفانًا لما قدموه من خدمات عسكرية، كما اتجه بعضهم إلى غرب الصين حيث يحاربون من أجل التحرر من السيطرة الصينية. هناك مسلمون صينيون، على ما يبدو، أرسلت بهم الصين إلى أفغانستان فى وقت بعيد يرجع إلى ١٩٧٨ للانضمام إلى عصابات متمردة ضد الحكومة، وبعد ذلك انضموا إلى القوات التى قامت وكالة المخابرات المركزية بتنظيمها بعد الغزو الروسى فى ١٩٧٩ الذى جاء تأييدًا للحكومة التى ساندتها روسيا - ونصبتها تمامًا مثلما نصبت الولايات المتحدة حكومة فى ڤيتنام الجنوبية، ثم غزتها؛ كى "تدافع" عن البلد الذى كانت تهاجمه! أورد هذا على سبيل التشبيه القريب. وحدث ذلك فى جنوب

الفليبين وشمال أفريقيا ، وفى غير ذلك من البلاد، فهم يقاتلون من أجل القضايا نفسها حسب رأيهم. ومع مطلع التسعينيات التفتوا إلى الولايات المتحدة التى يرى ابن لادن أنها غزت السعودية مثلما غزت روسيا أفغانستان .

سؤال: ما العواقب التى تتنبأ بها بالنسبة لحركة سياتل؟ هل تعتقد أنها سوف تعانى نتيجة لما حدث؟ أم هل من الممكن أن تكتسب قوة دفع؟

تشومسكى: من المؤكد أن ما حدث يعد نكسة للاحتجاجات التى شملت أنحاء العالم ضد العولمة، والتى، مرة أخرى، لم تبدأ فى سياتل. إن مثل هذه الأعمال الإرهابية البشعة تعد هدية تقدم لأكثر العناصر شدة وقمعًا فى جميع الجوانب، ومن المؤكد أن يتم استغلالها - بل إنها قد استغلت فى الواقع - وذلك من أجل الإسراع فى خطة العسكرة والتجييش والرجوع عن البرامج الاجتماعية الديموقراطية، ونقل الثروة لقطاعات ضيقة، وتقليل الديموقراطية فى أى صيغة ذات مغزى. غير أن هذا لن يحدث بدون مقاومة، وأشك فى أن هذا سوف ينجح، إلا على المدى القصير.

سؤال: ما عواقب ذلك بالنسبة للشرق الأوسط؟ على الأخص بالنسبة للصراع الإسرائيلى الفلسطينى؟

تشومسكى: كانت الأعمال البشعة التى وقعت فى الحادى عشر من سبتمبر ضربة قاصمة بالنسبة للفلسطينيين، كما عرفوا ذلك على الفور. ولا تخفى إسرائيل غبطتها "بهذه الفرصة السانحة" التى فتحت أمامها، وعليها الآن أن تحطم الفلسطينيين دون أن تنال أى عقاب. ففى الأيام القليلة التى تلت هجوم ١١/ ٩، دخلت الدبابات الإسرائيلية المدن الفلسطينية مثل جنين، رام الله، وأريحا، لأول مرة، وقتلت عدة عشرات من الفلسطينيين، واشتدت قبضة إسرائيل الحديدية على السكان، تمامًا كما هو متوقع. ومرة أخرى، هذه هى الديناميكيات الشائعة لدائرة من العنف المتصاعد، وهى مألوفة فى كل أنحاء العالم فى أيرلندا الشمالية، وإسرائيل - فلسطين، والبلقان، وغير ذلك من الأماكن.

سؤال: ما رأيك فى رد فعل الأمريكيين؟ بدا أنهم هادئو الأعصاب تماما، ولكن كما قال ساسكيا ساسين مؤخرًا فى إحدى المقابلات «نحن نحس بالفعل وكأننا فى حالة حرب» ؟

تشومسكى: كان رد الفعل المباشر هو الصدمة والرعب، والغضب والخوف، والرغبة فى الانتقام، غير أن الرأى العام به مشاعر مختلطة، ولم يكد يمر وقت طويل حتى نشأت تيارات مضادة، بل يمكن التعرف عليها الآن فى التعليقات العامة الجارية فى صحف اليوم، على سبيل المثال.

سؤال: فى إحدى المقابلات مع صحيفة مكسيكية يومية هى لا چورنادا، قلت: إننا نواجه نمطًا جديدًا من الحرب. فماذا كنت تقصد بالضبط؟

تشومسكى: إنه نمط جديد من الحرب للأسباب التى ذكرت إجابة على سؤالك الأول، فالمدافع الآن مصوبة نحو اتجاه مختلف، وهو شىء جديد تمامًا فى تاريخ الغرب، وما تفرع عنه.

سؤال: هل العرب، بالتحديد، أصوليون بالضرورة؟ أى عدو الغرب الجديد؟

تشومسكى: بالطبع لا. فأول كل شىء، لا يوجد شخص يتمتع بأقل قدر من العقلانية يُعرّف العرب بأنهم "أصوليون". ليس لدى الولايات المتحدة، والغرب عموما أى اعتراض على الأصولية الدينية بالمعنى المعروف. فالولايات المتحدة، فى واقع الأمر، واحدة من أشد الثقافات الأصولية الدينية المتطرفة فى العالم؛ ولا أعنى بذلك الدولة، وإنما أعنى الثقافة الشعبية. وفى العالم الإسلامى، فإن أشد الدول أصولية، باستثناء طالبان، هى السعودية، وهى دولة [صديقة جدًا] للولايات المتحدة، منذ نشأتها، والطالبان فى حقيقة الأمر، هم فرع من النظرة السعودية للإسلام. وكان الإسلاميون المتطرفون المغالون الذين كثيرًا ما يسمون "الأصوليين" مفضلين لدى الولايات المتحدة فى الثمانينيات من القرن العشرين؛ لأنهم أفضل قتلة يمكن العثور عليهم. ففى تلك السنوات، كانت الكنيسة الكاثوليكية هى العدو الأول للولايات المتحدة، عندما ارتكبت الكنيسة خطيئة فادحة فى أمريكا اللاتينية بتبنى "اختيار تفضيل الفقراء" وعانت معاناة مريرة بسبب هذه الجريمة. والغرب عالمى تمامًا فى اختيار الأعداء، فالمعايير هى الخضوع والإذعان للقوة، وليس للدين، وهناك الكثير من الأمثلة التوضيحية الأخرى.